**الدرس السابع: العولمة وتأثيرها على الأمن الثقافي والمجتمعي**

 **لقد أصبحت العولمة حديث الناس في كل مكان، خاصة هذه الايام، وكثرت حولها المصطلحات والتعريفات التي تجري على الالسن والاقلام، ولعل أكثر هذه المصطلحات شيوعا هو أن العالم أصبح قرية صغيرة، وهو تعريف فيه الكثير من الحق؛**

**فقد أصبح العالم مكاناً صغيراً، بفضل الاتصالات الحديثة والقدرة على تبادل المعارف، والانتقال من مكان الى آخر، واستخدام وسائل التكنولوجيا الحديثة. ولكن هذا التواصل تقابله نزعه واضحة إلى التشبث بالقومية وباللغة، مهما يكن انتشارها محدوداً، وكأنما تقابل بعض الشعوب لهذه النزعة سلطان العولمة الذي يعتمد في المقام الأول على السيادة في الاقتصاد والصناعة والتجارة، والنفوذ السياسي، وتلوذ الشعوب بقومتيها وتراثها ولغتها؛ كيلا تذوب وتصبح قطرة في ذلك المد الجارف، والأمثلة كثيره على هذا الاتجاه في دول البلقان وغيرها.**

 **أولا: عناصر العولمة:**

 **تتكون العولمة من العناصر الرئيسة الآتية:**

 **1-تعميم الر أسمالية:**
 **إن التغلب الرأسمالي على الشيوعي جعلها تعمم مبادئها على كل المجتمعات الاخرى، فأصبحت قيم السوق ، والتجارة الحرة ، والانفتاح الاقتصادي ، والتبادل التجاري ،وانتقال السلع ورؤوس الاموال، وتقنيات الإنتاج والاشخاص والمعلومات هي القيم الرائجة، وتقود أمريكا، وتفرضها عن طريق مؤسسات البنك الدولي، وغيرها من المؤسسات العالمية التابعة للأمم المتحدة، وعن طريق الاتفاقيات العالمية التي تقرها تلك المؤسسات كاتفاقية الجات وغيرها.**

 **2-القطب الواحد:**
 **تفردت أمريكا بقيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وتفكيك منظومته الدولية، ومن الجدير بالملاحظة أنه لم تبلغ امبراطورية في التاريخ بقوة امريكا العسكرية والاقتصادية، مما يجعل هذا التفرد خطيرا على الاخرين في كافة المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية … إلخ**

 **3-ثورة التقنيات والمعلومات:**
 **مرت البشرية بعدة ثورات علمية منها ثورة البخار والكهرباء والذرة، وكان آخرها الثورة العلمية والتكنولوجية، والخاصة بالتطورات المدهشة في عالم الكمبيوتر، وتوصل الكمبيوتر الحالي إلى إجراء أكثر من ملياري عملية مختلفة في الثانية الواحدة، وهو الأمر الذي كان يستغرق ألف عام لإجرائه في السابق، أما المجال الآخر من هذه الثورة فهو التطورات المثيرة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتي تتيح للأفراد والدول والمجتمعات للارتباط بعدد لا يحصى من الوسائل التي تتراوح بين الكبلات الضوئية والفاكسات، ومحطات الإذاعة والقنوات التلفزيونية الأرضية، والفضائية التي تبث برامجها المختلفة. بالإضافة إلى أجهزة الكمبيوتر، والبريد الإلكتروني وشبكات الإنترنت التي تربط العالم بتكاليف أقل وبوضوح أكثر على مدار الساعة، ولقد تحولت تكنولوجيا المعومات إلى أهم مصدر من مصادر الثروة، أو قوة من القوى الاجتماعية والسياسية والثقافية الكاسحة في عالم اليوم.**

 **ثانيا: العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات**

 **هناك علاقة بين العولمة والهوية الثقافية، كما يمكن أن ترصد اليوم في الوطن العربي، سواء كعلاقة قائمة بالفعل، أو كما يمكن أن تقوم في المستقبل. وبالتالي نقدم أطروحات تؤخذ هنا كحقائق أو مسلمات. هذه الأطروحات هي:**

**الأطروحة1: ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، بل ثقافات.**

 **إننا نقصد بـ "الثقافة" هنا: ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات، والقيم والرموز والتعبيرات، والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات، بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء. وبعبارة أخرى إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل. تلزم عن هذا التعريف، لزوما ضروريا، النتيجة التالية: تشكل قلب هذه الأطروحة وجوهرها وهي أنه: ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام، وإنما وجدت، وتوجد وستوجد، ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية، أو بتدخل إرادي من أهلها، على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة. من هذه الثقافات ما يميل إلى الانغلاق والانكماش، ومنها ما يسعى إلى الانتشار والتوسع، ومنها ما ينعزل حينا وينتشر حينا آخر.**

**الأطروحة2: الهوية الثقافية مستويات ثلاثة: فردية، وجمعوية، ووطنية قومية. والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسا بنوع "الآخر" الذي تواجهه.**

 **إن الهوية الثقافية كيان يصير، يتطور، وليست معطى جاهزا ونهائيا. هي تصير وتتطور، إما في اتجاه الانكماش، وإما في اتجاه الانتشار، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، انتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضا باحتكاكها-سلبا وإيجابا-مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما. وعلى العموم، تتحرك الهوية الثقافية على ثلاثة دوائر متداخلة ذات مركز واحد.**
**-فالفرد داخل الجماعة الواحدة، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدنية (حزبا ونقابة الخ…)، هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة. عبارة عن "أنا"، لها "آخر" داخل الجماعة نفسها: "أنا" تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة مع هذا النوع من "الآخر".**
**- والجماعات، داخل الأمة، هي كالأفراد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، ولكل منها "أنا" خاصة بها و"آخر" من خلاله وعبره تتعرف على نفسها بوصفها ليست إياه.**
**- والشيء نفسه يقال بالنسبة للأمة الواحدة إزاء الأمم الأخرى. غير أنها أكثر تجريدا، وأوسع نطاقا، وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والاختلاف.**
 **هناك إذن ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية، لشعب من الشعوب: الهوية الفردية، والهوية الجمعوية، والهوية الوطنية (أو القومية). والعلاقة بين هذه المستويات ليست قارة ولا ثابتة، بل هي في مد وجزر دائمين، يتغير مدى كل منهما اتساعا وضيقا، حسب الظروف وأنواع الصراع واللاصراع، والتضامن واللاتضامن، التي تحركها المصالح: المصالح الفردية والمصالح الجمعوية والمصالح الوطنية والقومية وبعبارة أخرى إن العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة تتحدد أساسا بنوع "الآخر "،بموقعه وطموحاته: فإن كان داخليا، ويقع في دائرة الجماعة، فالهوية الفردية هي التي تفرض نفسها كـ"أنا"، وإن كان يقع في دائرة الأمة فالهوية الجمعوية (القبلية، الطائفية، الحزبية الخ) هي التي تحل محل "الأنا "الفردي. أما إن كان "الآخر" خارجيا، أي يقع خارج الأمة (والدولة والوطن) فإن الهوية الوطنية –أو القومية-هي التي تملأ مجال "الأنا".**

**الأطروحة3: لا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعتيها: جماعة الوطن والأمة والدولة.**

**لا تكتمل الهوية الثقافية، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية، على الأخذ والعطاء، إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن والأمة والدولة.**
**الوطن: بوصفه” الأرض والأموات”، أو الجغرافية والتاريخ وقد أصبحا كيانا روحيا واحدا يعمر قلب كل مواطن. الجغرافيا وقد أصبحت معطى تاريخيا. والتاريخ وقد صار موقعا جغرافيا.**
**الأمة: بوصفها النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة: وقوامها ذاكرة تاريخية وطموحات تعبر عنها الإرادة الجماعية التي يصنعها حب الوطن، أعني الوفاء لـ “الأرض والأموات”، للتاريخ الذي ينجب، والأرض التي تستقبل وتحتضن.**
**الدولة: بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة، والجهاز الساهر على سلامتهما ووحدتهما وحماية مصالحهما، وتمثيلهما إزاء الدول الأخرى، في زمن السلم كما في زمن الحرب. ولا بد من التمييز هنا بين “الدولة” ككيان مشخص ومجرد في الوقت نفسه، كيان يجسد وحدة الوطن والأمة، من جهة، وبين الحكومة أو النظام السياسي الذي يمارس السلطة ويتحدث باسمها من جهة أخرى. وواضح أننا نقصد هنا المعنى الأول**
**وإذن، فكل مس بالوطن أو بالأمة أو بالدولة هو مس بالهوية الثقافية، والعكس صحيح أيضا: المس بالهوية الثقافية هو في نفس الوقت مس بالوطن والأمة وتجسيدهما.**

**الأطروحة4: ليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي بل هي أيضا، وبالدرجة الأولى، إيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم**
 **العولمة التي يجري الحديث عنها الآن: نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد. يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال الخ… كما يشمل أيضا مجال السياسة والفكر والإيديولوجيا. والعولمة تعني في معناها اللغوي: تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله. وهي تعني الآن، في المجال السياسي منظورا إليه من زاوية الجغرافيا (الجيوبولتيك)، العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه، هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، على بلدان العالم أجمع. ليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور” التلقائي” للنظام الرأسمالي، بل إنها، أيضا، وبالدرجة الأولى دعوة إلى تبني نموذج معين. وبعبارة أخرى، فالعولمة، إلى جانب أنها تعكس مظهرا أساسيا من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده عصرنا، هي أيضا إيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة، عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته. وقد حددت وسائلها لتحقيق ذلك في الأمور الآتية:**
 **1-استعمال السوق العالمية أداة للإخلال بالتوازن في الدول القومية، في نظمها وبرامجها الخاصة بالحماية الاجتماعية.**
 **2-اتخاذ السوق والمنافسة التي تجري فيها مجالا الاصطفاء”، بالمعنى الدارويني للكلمة، أي وفقا لنظرية "داروين" في “اصطفاء الأنواع والبقاء للأصلح”. وهذا يعني أن الدول والأمم والشعوب التي لا تقدر على” المنافسة” سيكون مصيرها، بل يجب أن يكون، الانقراض.**
 **3-إعطاء كل الأهمية والأولوية للإعلام لإحداث التغييرات المطلوبة على الصعيد المحلي والعالمي، باعتبار أن “الجيوبوليتيك”، أو السياسة منظورا إليها من زاوية الجغرافيا، وبالتالي الهيمنة العالمية، أصبحت تعني اليوم مراقبة ”السلطة اللامادية”، سلطة تكنولوجية الإعلام التي ترسم اليوم الحدود في “الفضاء السيبرنيتي”: حدود المجال الاقتصادي السياسي التي ترسمها وسائل الاتصال الإلكترونية المتطورة.**
**وهكذا فبدلا من الحدود الثقافية، الوطنية والقومية، تطرح إيديولوجيا العولمة ”حدودا” أخرى، غير مرئية، ترسمها الشبكات العالمية قصد الهيمنة على الاقتصاد والأذواق والفكر والسلوك.**

**الأطروحة5: العولمة شيء والعالمية” شيء آخر. العالمية تفتح على العالم،**
**على الثقافات الأخرى، واحتفاظ بالاختلاف**
**الثقافي وبالخلاف الإيديولوجي. أما العولمة فهي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي.**
**العولمةGLOBALISATION إرادة للهيمنة وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي. أما العالمية UNIVERSALITE UNIVERSALISME. فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي. العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني.**
**نشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح. إنها طريق الأنا للتعامل مع” الآخر” بوصفه “أنا ثانية”، طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة. أما العولمة فهي طموح بل إرادة لاختراق “الآخر” وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من “العالم”. العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراق لها وتمييع.**
 **والاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة يريد إلغاء الصراع الإيديولوجي والحلول محله. الصراع الإيديولوجي صراع حول تأويل الحاضر وتفسير الماضي والتشريع للمستقبل، أما الاختراق الثقافي فيستهدف الأداة التي يتم بها ذلك التأويل والتفسير والتشريع: يستهدف العقل والنفس ووسيلتهما في التعامل مع العالم: “الإدراك**
**لقد حل هذا اللفظ اليوم – الإدراك-محل لفظ آخر كان كثير الاستعمال بالأمس، في عصر الصراع الإيديولوجي، لفظ “الوعي” (الوعي الطبقي، الوعي القومي، الوعي الديني…). كان الصراع الإيديولوجي وما يزال يستهدف تشكيل الوعي، تزييفه أو تصحيحه الخ، أما “الاختراق الثقافي” فهو يستهدف أول ما يستهدف السيطرة على الإدراك، اختطافه وتوجيهه، وبالتالي سلب الوعي، والهيمنة على الهوية الثقافية الفردية والجماعية**
**في زمن الصراع الإيديولوجي كانت وسيلة تشكيل الوعي هي الإيديولوجيا، أما في زمن الاختراق الثقافي فوسيلة السيطرة على الإدراك هي الصورة السمعية البصرية التي تسعى إلى “تسطيح الوعي”، إلى جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري، مثير للإدراك، مستفز للانفعال، حاجب للعقل…**
**وبالسيطرة على الإدراك، وانطلاقا منها، يتم “إخضاع النفوس”، أعني تعطيل فاعلية العقل، وتكييف المنطق، والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق، وقولبة السلوك. والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع: معارف إشهارية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه "ثقافة الاختراق".**

**الأطروحة6: ثقافة الاختراق تقوم على جملة أوهام هدفها: “التطبيع” مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري**

 **تتولى القيامَ بعملية تسطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم، ثقافةٌ جديدة تماما لم يشهد التاريخ من قبل لها مثيلا: ثقافة إشهارية إعلامية سمعية، وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي (الاشهار التجاري)، والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية) وتشيد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ، إنها “ثقافة الاختراق” التي تقدمها العولمة بديلا للصراع الإيديولوجي.**
 **ولا يعني حلول الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي موت الإيديولوجيا، كما يريد المبشرون بالعولمة أن يوهموا الناس. كلا إن الاختراق الثقافي، بالعكس من ذلك، مُحَمَّلٌ بإيديولوجيا معينة، هي إيديولوجيا الاختراق، وهي تختلف عن الإيديولوجيات المتصارعة، كالرأسمالية والاشتراكية، في كونها لا تقدم مشروعا للمستقبل، لا تقدم نفسها كخصم لبديل آخر تسميه وتقاومه، وإنما تعمل على اختراق الرغبة في البديل وشل نشدان التغيير لدى الأفراد والجماعات.**
 **إيديولوجيا الاختراق تقوم على نشر وتكريس جملة أوهام، هي نفسها “مكونات الثقافة الإعلامية الجماهيرية في الولايات المتحدة الأمريكية”، وقد حصرها باحث أمريكي في الأوهام الخمسة التالية: الفردية، وهم الخيار الشخصي، وهم الحياد، وهم الطبيعة البشرية التي لا تتغير، وهم غياب الصراع الاجتماعي. وإذا نحن أردنا أن نوجز في عبارة واحدة مضمون هذه المسلمات الخمس، أمكن القول إن “الثقافة الإعلامية الجماهيرية” الأمريكية، هذه، تكرس إيديولوجيا “الفردية المستسلمة”، وهي إيديولوجيا تضرب في الصميم الهوية الثقافية بمستوياتها الثلاثة، الفردية والجمعوية والوطنية القومية.**
 **إن” وهم الفردية”، أي اعتقاد المرء في أن حقيقة وجوده محصور في فرديته، وإن كل ما عداه أجنبي عنه لا يعنيه، إنما يعمل -هذا الوهم-على تخريب وتمزيق الرابطة الجماعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يكمن في كونه عضوا في جماعة وفي طبقة وأمة، وبالتالي فوهم الفردية هذا إنما يهدف إلى إلغاء الهوية الجمعوية والطبقية والوطنية القومية، وكل إطار جماعي آخر. ليبقى الإطار” العالمي” –بل العولمي-هو وحده الموجود...**
 **أما” وهم الخيار الشخصي” فواضح أنه يرتبط بالأول ويكمله. إنه، باسم الحرية، يكرس النزعة الأنانية ويعمل على طمس الروح الجماعية سواء كانت على صورة الوعي الطبقي أو الوعي القومي أو الشعور الإنساني.**
 **ويأتي” وهم الحياد” ليدفع بالأمور خطوة أخرى في الاتجاه نفسه: فمادام الفرد وحده الموجود، ومادام حرا مختارا فهو “محايد”، وكل الناس والأشياء إزاءه “محايدون” أو يجب أن يكونوا كذلك. وهكذا تعمل هذه الإيديولوجيا من خلال “وهم الحياد” على تكريس التحلل من كل التزام أو ارتباط بأية قضية. ومن هنا ذلك الشعار الذي انتشر في السنين الأخيرة: شعار: "وانا مالي".**
 **وأما الوهم الرابع وهو “الاعتقاد في الطبيعة البشرية التي لا تتغير”، فواضح أنه يرمي إلى صرف النظر عن رؤية الفوارق بين الأغنياء والفقراء، بين البيض والسود، بين المستغلين وبين من هم ضحايا الاستغلال، وقبولها -أعني تلك الفوارق-بوصفها أمورا طبيعية كالفوارق بين الليل والنهار والصيف والشتاء، وبالتالي شل روح المقاومة في الفرد والجماعة.**
 **ويأتي الوهم الخامس صريحا في منطوقه ومفهومه: إن “الاعتقاد في غياب الصراع الاجتماعي” هو التتويج الصريح للأوهام السابقة: غياب الصراع الاجتماعي معناه -إذا قبلناه وسلمنا به-الاستسلام للجهات المستغلة، من شركات ووكالات وغيرها من أدوات العولمة. وبعبارة أخرى التطبيع” مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري الذي يشكل الهدف الأول والأخير للعولمة.**

**الأطروحة7: العولمة نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع للتفتيت والتشتيت،. ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة، أو يغرقهم في أتون الحرب الأهلية**
 **إضافة إلى التطبيع مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري، يأتي فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، وبالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى. إن العولمة عالم بدون دولة، بدون أمة، بدون وطن. إنه عالم المؤسسات والشبكات العالمية، عالم “الفاعلين”، وهم المسيرون، والمفعول فيهم” وهم المستهلكون للسلع والصور والمعلومات” والحركات والسكنات التي تفرض عليهم. أما “وطنهم” فهو الفضاء “المعلوماتي” الذي تصنعه شبكات الاتصال، الفضاء الذي يحتوي –يسيطر ويوجه-الاقتصاد والسياسة والثقافة.**
 **العولمة نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن. نظام يريد رفع الحواجز والحدود أمام الشبكات والمؤسسات والشركات المتعددة الجنسية، وبالتالي إذابة الدولة الوطنية وجعل دورها يقتصر على القيام بدور الدركي لشبكات الهيمنة العالمية. والعولمة تقوم على الخوصصة، أي على نزع ملكية الوطن والأمة والدولة ونقلها إلى الخواص في الداخل والخارج. وهكذا تتحول الدولة إلى جهاز لا يملك ولا يراقب ولا يوجه. وإضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لفائدة العولمة يؤديان حتما إلى استيقاظ وإيقاظ أطر للانتماء سابقة على الأمة والدولة، أعني القبيلة والطائفة والجهة والتعصب المذهبي الخ… والدفع بها جميعا إلى التقاتل والتناحر والإفناء المتبادل: إلى تمزيق الهوية الثقافية الوطنية القومية… إلى الحرب الأهلية.**
 **ولابد من الـتأكيد هنا على أن مفهوم الهوية الثقافية القومية الذي نستعمله هنا، بمعنى الهوية المشتركة لجميع أبناء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، لا يعني قط إلغاء ولا إقصاء الهويات الوطنية القطرية ولا الهويات الجمعوية، الإثنية والطائفية. إنه لا يعني فرض نمط ثقافي معين على الأنماط الثقافية الأخرى، المتعددة والمتعايشة، عبر تاريخنا المديد، داخل الوطن العربي الكبير. كلا، إن التعدد الثقافي في الوطن العربي واقعة أساسية لا يجوز القفز عليها، بل بالعكس لا بد من توظيفها بوعي في إغناء وإخصاب الثقافة العربية القومية وتوسيع مجالها الحيوي. ولكن تبقى مع ذلك كله الوظيفة التاريخية لهذه الثقافة، وظيفة التوحيد المعنوي، الروحي والعقلي، وظيفة الارتفاع ب “الوطن العربي ” من مجرد رقعة جغرافية إلى وعاء للأمة العربية لا تكون إلا به ولا يكون إلا بها.**
 **هذا من جهة ومن جهة أخرى، فاللغة المشتركة بين جميع أبناء الأمة العربية، لغة التراث المشترك، ولغة العلم والثقافة العالمة جملة، وبالتالي لغة التحديث والحداثة هي اللغة العربية. ولذلك كانت اللغة العربية هي، في آن واحد، الرابطة المتينة التيتوحد بين مستويات الهوية في الوطن العربي، أعني المستوى الفردي والمستوى الجمعوي والمستوى الوطني والقومي، وأيضا الأداة الوحيدة التي بها يمكن العرب الدخول في العالمية وتحقيق الحداثة.**

**الأطروحة8: العولمة وتكريس الثنائية والانشطار في الهوية الثقافية العربية**

 **كلنا نعرف أن الثقافة العربية تعاني، منذ ما يقرب من قرنيـن، وضعا متوترا نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية، بتقنياتها وعلومها وقيمها الحضارية التي هي نتيجة تطور خاص قوامه التحديث والحداثة، تطور لم تعشه الثقافة العربية، بل بقيت بمعزل عنه تجتر وضعا قديما توقف عن النمو منذ قرون.**
 **ومن هنا تلك الثنائية التي تطبع الثقافة العربية بمختلف مستوياتها المادية والروحية، ثنائية التقليدي والعصري. وهي ثنائية تكرس الازدواجية والانشطار داخل الهوية الثقافية العربية بمستوياتها الثلاثة: الفردي والجمعوي والوطني القومي: أحد طرفي هذه الثنائية يعكس الهوية الثقافية على صورة “جمود على التقليد” ضمن قوالب ومفاهيم وآليات دفاعية تستعصي على الاختراق وتقاوم التجديد. والآخر يجسم الاختراق الثقافي وقد اكتسح الساحة اكتساحا ليتحول إلى ثقافة الاختراق، أعني الثقافة المبشرة به المكرسة له.**
**فهذا الإطار إذن يجب أن نضع خصوصية العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية عندما يتعلق الأمر بالوطن العربي.**

 **فالاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة لا يقف عن حدود تكريس الاستتباع الحضاري بوجه عام، بل إنه سلاح خطير يكرس الثنائية والانشطار في الهوية الوطنية القومية، ليس الآن فقط بل وعلى مدى الأجيال الصاعدة والقادمة. ذلك أن الوسائل السمعية البصرية، المرئية واللامرئية التي تحمل هذا الاختراق وتكرسه إنما تملكها وتستفيد منها فئة معينة هي النخبة العصرية وحواشيها، فهي التي تستطيع امتلاكها والتعامل مع لغاتها الأجنبية، بحكم التعليم “العصري” الذي تتلقاه. أما “عموم الشعب” وعلى رأسه النخبة التقليدية فهو في شبه عزلة، يجتر بصورة أو بأخرى ثقافة “الجمود على التقليد”. والنتيجة استمرار إعادة إنتاج متواصلة ومتعاظمة للثنائية نفسها، ثنائية التقليدي و العصري، ثنائية الأصالة والمعاصرة، في الثقافة والفكر والسلوك.**
**الأطروحة9 :إن تجديد الثقافة، أية ثقافة، لا يمكن أن يتم إلا من داخلها: بإعادة بنائها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، والتماس وجوه من الفهم والتأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل**
**ما العمل إزاء هذه السلبيات والأخطار التي تطبع علاقة العولمة بالعرب على صعيد الهوية الثقافية؟**
 **هناك موقفان ، وهما السائدان: موقف الرفض المطلق وسلاحه الانغلاق الكلي وما يتبع ذلك من ردود فعل سلبية محاربة… وموقف القبول التام للعولمة، وما تمارسه من اختراق ثقافي واستتباع حضاري، شعاره “الانفتاح على العصر” والمراهنة على الحداثة.**
**لا مفر من تصنيف هذين الموقفين ضمن المواقف اللاتاريخية التي تواجه المشاكل، لا بعقل واثق بنفسه متمكن من قدراته، وإنما تستقبلها بعقل “مستقيل” لا يرى صاحبه مخرجا من المشاكل إلا بالهروب منها، إما إلى الوراء وإما إلى الأمام، كل سلاحه رؤية سحرية للعالم تقفز على الواقع إلى اللاواقع.**
 **إن الانغلاق موقف سلبي، غير فاعل. ذلك لأن فعله الموجه ضد الاختراق الثقافي – أي محاربته له – لا ينال الاختراق ولا يمسه ولا يفعل فيه أي فعل، بل فعله موجه كله إلى الذات قصد “تحصينها”. والتحصين إنما يكون مفيدا عندما يكون المتحاربان على نسبة معقولة من تكافؤ القوى والقدرات.**

 **أما عندما يتعلق الأمر بظاهرة عالمية، تدخل جميع البيوت وتفعل فعلها بالإغراء والعدوى والحاجة، ويفرضها أصحابها فرضا بتخطيط واستراتيجية، فإن الانغلاق في هذه الحالة ينقلب إلى موت بطيء، قد تتخلله بطولات مدهشة ولكن صاحبه محكوم عليه بالإخفاق. ومثل الانغلاق مثل مقابله: الاغتراب. إن ثقافة الاغتراب، أعني إيديولوجيا الارتماء في أحضان العولمة والاندماج فيها، ثقافة تنطلق من الفراغ، أي من اللاهوية، وبالتالي فهي لا تستطيع أن تبني هوية ولا كيانا. يقول أصحاب هذا الموقف: إنه لا فائدة في المقاومة ولا في الالتجاء إلى التراث، بل يجب الانخراط في العولمة من دون تردد ومن دون حدود، لأنها ظاهرة حضارية عالمية لا يمكن الوقوف ضدها ولا تحقيق التقدم خارجها. إن الأمر يتعلق بـ “قطار يجب أن نركبه” وهو ماض في طريقه بنا أوبدوننا. ولا يوضح أصحاب هذه الدعوى هل سنبزر هوياتنا عند ركوب القطار أم أننا سنركبه بدون هوية، بدون ورقة تعريف!؟**
 **وبعيدا عن مناقشة جدالية لهذه الدعوى، يكفي التنبيه إلى أنها نفس الدعوى التي سبق أن ادعاها ونادى بها مفكرون عرب رواد منذ أزيد من قرن، ومنذ ذلك الوقت وهي تتردد وتتكرر هنا وهناك في الوطن العربي، تبنتها حكومات وأحزاب فضلا عن الأفراد… ومع ذلك فحصيلة قرن كامل من التبشير بهذه الدعوى – دعوى “الاغتراب” -لم تنتج سوى فئة من “العصرانيين ” قليلة العدد، نشاهد اليوم تناقصا نسبيا والحافي حجمها، بينما ازداد ويزداد الطرف المقابل لها عددا وعدة، كما وكيفا، في جميع الأقطار العربية وداخل جميع الشرائح الاجتماعية. وهكذا فبدلا من تيارات” حداثية” تمارس الهيمنة والقيادة تستقطب الأجيال الصاعدة، بدلا من ذلك يسود الحديث عن “الأصولية الدينية ” بوصفها الظاهرة المهيمنة.**
 **أما نحن فنرى أن الجواب الصحيح عن سؤال “ما العمل”؟ –سواء إزاء الثنائية والانشطار الذين تعاني منهما الثقافة العربية، أو إزاء الاختراق الثقافي وإيديولوجيا العولمة-يجب أن ينطلق أولا وقبل كل شيء من العمل داخل الثقافة العربية نفسها. ذلك لأنه سواء تعلق الأمر بالمجال الثقافي أو بغيره، فمن المؤكدان لولا الضعف الداخلي لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطرا على الكيان والهوية.**
 **إن الثنائية والانشطار -اللذين تحدثنا عنهما واللذين يشكلان نقطة الضعف الخطيرة في واقعنا الثقافي الراهن التي منها يمارس الاختراق تأثيره التخريبي-إنما يعكسان وضعية ثقافة لم تتم بعد إعادة بنائها، ثقافة يتزامن فيها القديم والجديد، والأصيل والوافد، في غير ما تفاعل ولا اندماج. وهذا راجع إلى أن التجديد في ثقافتنا كان يراد له، منذ أزيد من قرن، أن يتم من “الخارج”: بنشر الفكر الحديث على سطحها. لقد سبق لنا أن أكدنا مرارا على أن تجديد الثقافة، أية ثقافة، لا يمكن أن يتم إلا من داخلها: بإعادة بنائها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، والتماس وجوه من الفهم والتأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل. ونعود فنؤكد هنا هذا المعنى.**

**الأطروحة10:ِإن حاجتنا إلى الدفاع عن هويتنا الثقافية بمستوياتها الثلاثة، لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لدخول عصر العلم والتقانة، وفي مقدمتها العقلانية والديموقراطية**
 **إن حاجتنا إلى تجديد ثقافتنا وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومة الغزو الكاسح الذي يمارسه ، على مستوى عالمي ، إعلاميا وبالتالي إيديولوجيا وثقافيا، المالكون للعلم والتقانة المسخرون لهما لهذا الغرض ، لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتقانة، دخول الذوات الفاعلة المستقلة وليس دخول “الموضوعات” المنفعلة المسيرة.**
 **نحن في حاجة إلى التحديث، أي إلى الانخراط في عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين. ولكننا في حاجة كذلك إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والتقانة. وليست هاتان الحاجتان الضروريتان متعارضتين كما قد يبدو لأول وهلة، بل بالعكس هما متكاملتان، أو على الأصح متلازمتان تلازم الشرط مع المشروط.**
 **ذلك لأنه من الحقائق البديهية في عالم اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان، النامية منها أو التي هي في “طريق ” النمو، نجاحها في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، مشروط أكثر من أي وقت مضى بمدى عمق عملية التحديث الجارية في هذا البلد، عملية الانخراط الواعي، النامي والمتجذر.**
 **والوسيلة في كل ذلك واحدة: اعتماد الإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها وفي مقدمتها العلم والتقانة. وهذا ما نلمسه بوضوح في تخطيطات الدول الأوروبية التي يُدَق في كثير منها ناقوسُ خطر “الغزو الأمريكي” الإعلامي الثقافي الذي يتهددها، في لغتها وسلوك أبنائها وتصوراتهم الجمعية، والذي يوظف أرقى وسائل العلم والتقانة – ومنها الأقمار الصناعية – في اكتساح مختلف الحقول المعرفية والخصوصيات الثقافية.**
 **إن أوربا اليوم تتحدث حديث الخصوصية والأصالة، وتتحدث عن “الهوية الأوربية” تعزيزا لسيرها الجدي على طريق تشييد الوحدة بين شعوبها وأقطارها، بخطوات عقلانية محسوبة في إطار من الممارسة الديموقراطية الحق. وهي بذلك تقدم لمستعمراتها القديمة، لأقطار العالم الثالث كله، نموذجا صالحا للاقتداء به بعد ملاءمته مع الخصوصيات المحلية.**
 **إن جل الحكومات العربية، إن لم يكن جميعها، تسعى اليوم لتحقيق “الشراكة” مع أوربا، الشراكة في مجال الاقتصاد، وأيضا في مجال الثقافة. ومع أن هذه الشراكة المطلوبة تمليها على الجانبين ظرفية تحكمها المصالح القومية فإنه لا شيء يضمن تحولها إلى عولمة أخرى داخل العولمة الكبرى، غير شيء واحد، هو بناء الشراكة في الداخل كما في الخارج على الديموقراطية والعقلانية.**
**فهل للشعوب العربية أن تطالب بالشراكة مع أوربا في مجال اعتماد العقلانية والديمقراطية، في الفكر والسلوك، في التخطيط والإنجاز، في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة؟**
 **والنظام لا يقاوم من خارجه إلا بنظام مكافئ له أو متفوق عليه. ونحن في العالم العربي نعيش حالة اللانظام. ليس لدينا نظام عربي يكافئ النظام العالمي للعولمة. فلا سبيل إذن إلى مقاومة سلبيات العولمة إلا من داخل العولمة نفسها، بأدواتها وبإحراجها في قيمها وتجاوزاتها. وأيضا بفرض نوع من النظام على الفوضى العربية القائمة، فوضى اللانظام.**

**المراجع:**

 1-أﺤﻤﺩ ﻋﺒﺩ ﺍﻟﺴﻼﻡ: ﺍﻟﻌﻭﻟﻤﺔ ﺍﻟﺜﻘﺎﻓﻴﺔ ﺍﻟﻠﻐﻭﻴﺔ، ﻤﺠﻠﺔ ﻤﺠﻤﻊ ﺍﻟﻠﻐﺔ ﺍﻟﻌﺭﺒﻴﺔ ﺍﻷﺭﺩﻨﻲ.

 2-ﺎﻨﺴﻥ ﺒﻴﺘﺭ ﻤﺎﺭﺘﻥ ﻫﺎﺭﻭﻟﺩ ﺸﻭﻤﺎﻥ: ﻓﺦ ﺍﻟﻌﻭﻟﻤﺔ، ﺘﺭﺠﻤﺔ ﻋﺩﻨﺎﻥ ﻋﺒﺎﺱ ﻋﻠﻲ، ﻤﺭﺍﺠﻌﺔ ﻭﺘﻘﺩﻴﻡ ﺭﻤﺯﻱ ﺯﻜﻲ.

 3-نهاد ﻤﻭﺴﻰ: ﺍﻟﻠﻐﺔ ﺍﻟﻌﺭﺒﻴﺔ ﻓﻲ ﺍﻟﻌﺼﺭ ﺍﻟﺤﺩﻴﺙ (ﻗﻴﻡ ﺍﻟﺜﺒﻭﺕ ﻭﻗﻭﻯ ﺍﻟﺘﺤﻭل).

4 -ﺃﺤﻤﺩ ﺒﻠﻴﺔ: ﺴﻴﻤﻴﺎﺌﻴﺎﺕ ﺍﻟﺼﻭﺭﺓ.

5-ﻋﻠﻲ ﺤﺭﺏ: ﺤﺩﻴﺙ ﺍﻟﻨﻬﺎﻴﺎﺕ، ﻓﺘﻭﺤﺎﺕ ﺍﻟﻌﻭﻟﻤﺔ ﻭﻤﺄﺯﻕ ﺍﻟﻬﻭﻴﺔ.**5** / **5** ( **1** صوت واحد )